تخلف الفكر وفكر التخلف

د. محمد عبد العزيز ربيع

صادف قبل شهرين مرور 25 عاما على تأسيس منتدى الفكر العربي، حيث أقام المنتدى ندوة خاصة بتلك المناسبة تحت عنوان " الفكر العربي في عالم سريع التغير". ولقد كان من المفروض أن يقوم المشاركون في المؤتمر بمراجعة الفكر العربي وتقييم انجازاته وتحديد موقعه من العالم سريع التغير الذي يعيش فيه ولا يمكن الفرار منه. إلا أن غالبية المشاركين، وكما هي عادة العرب في مختلف المحافل الفكرية، حاولوا التهرب من الموضوع المطروح عليهم، وذلك تجنبا للاعتراف بتخلف الفكر العربي الذين يجسدونه بكتاباتهم ويعبرون عنه بأقوالهم وتصرفاتهم. ولهذا تم إبعاد الحوار عن هدفه الرئيسي، وتوجيهه نحو مهاجمة العولمة باعتبارها مسئولة عن تردي الأوضاع الفكرية وغير الفكرية في البلاد العربية.

ليس هناك شك في أن العولمة هي ظاهرة مجتمعية ودولية طاغية ذات تبعات كبيرة، وأحيانا قاسية على مختلف نواحي الحياة، على الفكر، والاقتصاد، والعلاقات الدولية، والأنماط الاستهلاكية، والمستويات المعيشية، والمسلكيات الفردية والجماعية، والعادات والتقاليد، والثقافات المحلية، والهويات الوطنية. لكن الفهم العربي عامة لظاهرة العولمة لا زال قاصرا، وموقف غالبية المثقفين، خاصة التابعين منهم للتيار الديني والقومي، يتسم بالسلبية التي ترفض حتى التمعن في الظاهرة، والتعرف على ظروف نشأتها واتجاه مسيرتها وتبعاتها المتوقعة على الواقع الدولي والعربي على المدى البعيد.

لقد ذكرني هذا الموقف بوقف شبيه لأستاذ جامعي عربي يعتبره الكثيرون أهم المؤرخين العرب في الوقت الراهن. لقد تعرفت على ذلك الأستاذ قبل حوالي 33 عاما عندما كنت أستاذا مبتدءا في جامعة الكويت، وقام في حينه بتشجيعي على الكتابة في التاريخ بعد أن قرأ لي بعض المقالات المنشورة في جريدة الرأي العام الكويتية، وذلك بالرغم من أن تخصصي هو في الاقتصاد. التقيت به بعد ذلك ثلاثة مرات على مدى فترات متباعدة، كان آخرها قبل حوالي 8 سنوات. سألني أثناء اللقاء عن آخر ما كتبت، وكنت في حينه على وشك الانتهاء من أهم كتبي باللغة الانجليزية، "The Making of History " أي صنع التاريخ، والذي أقدم فيه نظرية جديدة في تفسير التاريخ وتتبع مسيرته على مدى العصور منذ عصر القبلية وحتى عصر المعرفة. كان الأستاذ الفاضل كريما معي حيث أثنى على عملي وقال بأن ما أقدمه يعتبر شيئا جديدا وهاما ومنطقيا، لكنه أضاف: "لكنني لا استطيع القبول به".

أجبت الأستاذ بثقة، ودون تردد أو مجاملة: "إنني أدرك تماما أنه من الصعب عليك القبول بالنظرية التي أقدمها". وهنا استغرب الأستاذ إجابتي وتعجب من إدراكي لموقفه الرافض لنظريتي، وسألني: "كيف عرفت هذا، ولماذا تعتقد أنه ليس بإمكاني قبول نظريتك". أجبته قائلا: " لأنك لو قبلت بها فسيكون ذلك بمثابة اعتراف واضح بأن ما دأبت على تدريسه لطلبتك على مدى أكثر من نصف قرن كان خاطئا". طأطأ الأستاذ رأسه قليلا، سكت برهة، ثم قال: "هذا صحيح، إن إنسانا في عمري وفي موقعي ليس بإمكانه أن يتنصل من فكر متأصل عبر تاريخ طويل، حتى وإن كان مشكوكا في صحة ذلك الفكر". ولا بد هنا من القول أن أستاذنا الجليل كان أمينا وصادقا مع نفسه

حين اعترف بسلامة ومنطقية ما أقدمه له ولغيره من فكر جديد، ولكن دون الاعتراف لجمهور طلابه والمعجبين بفكره بحقيقة تقادم ما كان يعلمه للغير وبالحاجة لاستبداله بما هو أكثر منطقية.

إن هذا لا يعكس فكرا متخلفا فحسب، بل يجسد أيضا تخلف الفكر القديم عامة، وتخلف موقف المفكر العربي خاصة، أو أولائك الذين يطلق عليهم جزافا لقب مفكرين في الأوساط الثقافية والإعلامية العربية التي تعانى نفسها من التخلف والبعد عن الموضوعية. إن موقفا أخلاقيا كهذا لا يمكن أن يقود إلى تقدم الفكر، والذي يعتبر من أهم، إن لم يكن أهم شروط تحقيق التقدم في البلاد العربية، كما إنه يفسر ببساطة أسباب تخلف الفكر العربي عن العالم الذي يعيش فيه ولا بد من التعامل والتعايش معه. إن أستاذنا الفاضل لا زال يمارس مهنة التعليم الجامعي، ولا زال يعتبر مرجعا رئيسيا وهاما فيما يتعلق بالدراسات التاريخية، ولا زال المعجبون بفكره يتزاحمون على باب مكتبه لإجراء المقابلات معه وكتابة المقالات التي تمتدح أفكاره النيرة.

يميل الإنسان بطبيعته إلى سماع ما يرغب أن يسمع، وإلى الذهاب إلى الأماكن التي تعجبه وتروق إليه، وإلى مصادقة من يستمع ولا يجادله كثيرا فيما يقول. لذلك لا يمل الإنسان سماع أغنيته المفضلة حتى لو أعيد بثها عشرات المرات يوميا، ولا يتوقف عن زيارة المدن والأسواق التجارية وأماكن الترفيه التي يجد فيها ضالته. وإذا كانت هذه هي طبيعة إنسانية عامة، فإنها تبدو غريزية لدى الإنسان العربي الذي يميل إلى رفض تجربة ما هو جديد، خاصة من الأفكار والعادات والمواقف والمهن. لهذا يلاحظ أن المحاضرات التي تتحدث عن عظمة التراث العربي تجد مئات وأحيانا آلاف المعجبين، في حين لا تجد المحاضرات التي تتحدث عن الاكتشافات العلمية الحديثة وتحاول نقد التركة الفكرية العربية المترهلة من يستمع إليها غير قلة من الذين يذهبون ليس للاستماع والتفكر، بل أساسا للدفاع عن قناعاتهم ومواقفهم القديمة.

ومن أجل جذب الجماهير التواقة لاجترار ذاتها وكلماتها وإعادة تدوير نفاياتها الفكرية غدت أغلبية "المثقفين والمفكرين" العرب، مجرد مطربين، أو مهرجين، أو حكواتيين، أو شعراء ربابة يعيدون تمثيل أدوار ومسرحيات قديمة بعد أن وضعها في قوالب جديدة أكثر إثارة. إن غالبية مثقفينا اليوم لا تملك من الثقافة العالمية إلا القليل، وما تستخدمه من تلك الثقافة لا يصب في قناة تثقيف الجماهير وتوعيتها، بل في قناة تكريس القديم والمستهلك من الأفكار والمواقف العقيمة... إن دوهم على ساحة الفكر والثقافة لا يزيد كثيرا عن دور من يمثل تحية كريوكا في الرقص البلدي أو إسماعيل ياسين في الفكاهة التي لا هدف لها سوى إضحاك الجمهور وتسليته والتخفيف من همومه.

إن التحدي الأكبر الذي يواجهه الإنسان في حياته والمجتمع في تاريخه هو التحدي مع الذات... الاعتراف بالفشل عندما يقع الفشل، والاعتراف بالخطأ حين يحدث الخطأ، والاعتراف بتقادم الفكر حين تتغير الأحوال وتغدو حكمة الماضي مخلفات أزمنة بائدة، والاعتراف بالحاجة لتجاوز المعتقدات حين يدحضها العلم وتعريها التجربة. إن تحقيق النصر في معركة التحدي مع الذات، يجعل من السهل تحقيق النصر في مواجهة تحديات الحياة... أما الفشل أمام تحدي الذات، فيجعل من شبه المستحيل مواجهة تحديات الحياة، وتجاوز الكبوات على الطريق لتحقيق التقدم.

للنشر يوم الثلاثاء 11-7-2006

د. محمد عبد العزيز ربيع professorrabie@yahoo.com